٣ ـ دانتى أليجييرى

والكوميديا الالهية

وأبو العلاء المعرى ورسالة الغفران

المطهر Purgatorio [1]

(١) تنفس دانتى صعداءه حين انتهى من دركات الجحيم ، وحين هب عليه أول أنفاس الفجر المنعش الندى ، ونظر فرأى نجوماً أربعة تتألق فى بنفسج السماء ، ولجة صاخبة ترغى وتزبد حول جزيرة نائية ، ينهض فوقها جبل شامخ رفيع الذرى ، كأنما يحمل القبة الأثيرية بروقيه ؛ وسأل عنه ڤرجيل فأنبأه أنه جبل المطهر ، وأنهما لابد موقلان فوقه ، ليصلوا منه إلى الفردوس

ويلتفتان فيريان شبحاً ميمماً شطرهما ، وإذا هو شبح كاتو من يوتيكا ، أقبل ينذرهما بما ينبغى لهما أن يتزودا به من الايمان والصبر فى سفرتهما الشاقة فى أحياد الجبل ، وفوق صياصيه . ويتقدمان من الشاطئ فينضح ڤرجيل الماء على وجه دانتى ، ويلف حول خصره قصبة مما ينبت فوق الشاطئ (٢) وما يكادان يفرغان حتى يريا زورقاً يثب فى البعد فوق نواصى الموج ، وفيه ملك كريم يجريه بين العدوتين ؛ وبين يدى الملك أرواح الموتى ، أقبلت من الدار الفانية إلى دار البقاء ؛ ويتبين دانتى بينها روح صديقه كاسيللا المغنى الفلورنسى المشهور ، الذى طفق يملأ الفجر بأغنياته الحلوة يحيى بها دانتى ، لولا أن استحثهما كاتو فانطلقا يهرولان شطر الجبل (٣) وينظر دانتى فلا يرى إلا خياله ، حين تشرق الشمس ، منبطحاً على السفح وراءه ، فيتزعج ويحسب أن ڤرجيل قد غادره ورحل ، ولكن ڤرجيل يطمئنه ، ويخبره أن أرواح الموتى إن هى إلا أضواء شفافة لا تكون لها ظلال كما لأهل الدار الفانية . ويبلغان منحدراً صعباً لا يستطيعان تسلقه ، ولكن بعض أرواح الموتى تدلهما على شعب ضيق فينفذان منه ويلقيان فيه الملك منفريدى ملك نابلى الذى يعرف دانتى ، ويرجوه ، إذا رجع إلى الدار الأولى ، أن يلقى ابنته كونستانزا ملكة أراجون ويحدثها عن حكاية مقتل والدها التاعس الذى لا يدرى أحد كيف قتل (٤) ويُصعدان فى الجبل ، فى طريق كلها نؤى وركام وأحجار ، ثم يجلسان عند منعرج يستريحان مما عراهما من نصب ... حيث تهتف بهما بعض أرواح الموتى ، ويعرف بينها دانتى روح صديقه بيلاكوا ، الذى يحدثه أنه استحق أن يكون خارج الفردوس دهراً لأنه لم يعجل بالتوبة قبل موته إلا حين أدركه المنون . (٥) وينطلقان ، فيلقيان أفواجاً ممن لم يعجلوا بتوبتهم فأمهلوا عن دخول الفردوس كما أمهل بيلاكوا . (٦) ويلقيان أفواجاً أخرى فتتكبكب حول دانتى ، تتألم وتبكى ، وترجوه إذا عاد إلى الدار الأولى ، أن يبلغ أهليهم تحياتهم ، وأن يرجوهم أن يستكثروا لهم من الصلاة والدعاء ، عسى أن يخفف عنهم ، وأن يعجل بهم إلى الجنة !! ويعجب دانتى ، ويسائل ڤرجيل « وماذا تفيد هؤلاء صلوات أهليهم ؟ وهل للانسان إلا ما سعى ؟ » ، ولكن ڤرجيل يذكر بياتريس ويذكر أن صلاة دانتى قد نفعتها ، وقد عجلت بها إلى الفردوس . ثم يلقيان سوردللو ، فيشكو إليه دانتى تدابر الايطاليين وتقاطعهم وقلة اهتمامهم بجمع كلمة إيطاليا وانهاض الامبراطورية الرومانية . (٧) ويرخى الليل سدوله فيتقدم سوردللو ليهديهما سواء السبيل فيدلهما إلى منعرج مزهر يريان فيه أرواح بعض الملوك والأمراء كالامبراطور رودولف ، وأوتوكار ملك بوهيميا ، وهنرى الثالث ملك انجلترا ... الخ ... ويتحدث دانتى إلى بعضهم (٨) وينتزل ملكان عظيمان من السماء ، فى يد كل منهما سيف من نور فيحرسان الوادى ، ولكن سوردللو يستأذنهما فيأذنان له ، فيقود الشاعرين إلى شعب جميل يلقى فيه روح نينو قاضى جاليورا فيكلمه دانتى فى بعض ما كان من مشكلات الدنيا ، ثم يلقى أحد إخوانه من الموتى فيتنبأ له عما سيلقاه من نفى وتشريد وتزح عن الديار حين يعود إلى الدنيا (٩) وينام دانتى ، ثم يصحو بعد الشروق بساعتين فيجده قد حمله من يدعى لوسيا إلى باب المطهر حيث يأذن لهم حارسه ، وهو من الملائكة ، باجتيازه . (١٠) ولا يدرى كيف ينتكس دانتى فيعطينا فى المطهر صورة من أبشع صور الجحيم فى هذا الفصل العاشر ... فبعد أن يجتازوا (سوردللو وڤرجيل ودانتى) طريقاً حلزونياً حول صخرة كبيرة

(١) الأرقام التى تتخلل الكلام هى أرقام الفصول التى يتركب منها المطهر

يشرفون على واد سحيق مكتظ بأهل الكبرياء والخيلاء من موتى الدار الفانية وقد وقفوا فيه وفوق كواهلهم حجارة ضخمة من الرخام يتوؤون تحتها ويتضاغون ويبكون ! (١١) ويمرون بأقوام من أهل الدنيا الفانية قضى عليهم ركبرهم أن يؤخروا فى منزلق صعب عن الجنة جزاء صلفهم فى دار الغرور (١٢) ثم يتقدم إليهم ملك فينقلهم من دارة المطهر الأولى إلى دارته الثانية . (١٣) حيث أهل الحسد والحقد والغيرة ... وقد خيطت أعينهم بسلوك من حديد ، ويجد دانتى من بينهم السيدة سابيا السينية التى تتحدث اليه فتخبره عن سبب تخلفها هنا . (١٤) ثم يلقى واحداً من سكان وادى الأرنو (النهر الذى تقع عليه فلورنسا) فيحدثه عن سبب انحطاط الفلورنسيين وسائر سكان هذا الوادى ، ثم انحطاط الناس فى رومانا .... ويمضى الشاعران بين ضجيج الأرواح الهائمة ، تلفظ جميعاً بهراء من الحسد والأحقاد القديمة (١٥) ويحدوهما ملك كريم إلى الدار الثالثة من المطهر حيث تطهر الأرواح من سورة الغضب والجوح الدنيوى ، وبعد أن يكلم دانتى بعض هذه الأرواح السادرة ينشر ضباب كثيف يغشى الوادى ، ويضل فيه الجميع (١٦) ويتعرفون الطريق على أصوات الأرواح التى تصلى لبارئها ، ثم يبرز من الضباب روح جريء (ماركو لومباردو) فيكلم دانتى ويقنعه أن الله القدير قد وضع فى كل نفس إرادة حرة تهدى إلى الرشد أو تنتهى الى الضلال ، وأن فساد الدنيا هو الثمرة المرة لهذا المزيج غير المتكافئ فى نفوس الحكام من القوى الروحية والشهوات الحسية (١٧) وينجاب الضباب ، أو هم يخلصون منه آخر الأمر ، ويتقدم اليهم ملك جميل فيقودهم إلى الدار الرابعة من دارات المطهر ؛ حيث يقر أهل الكسل وعدم المبالاة ليخلصوا من أدرانهم (١٨—١٩) ويتحدث ڤرجيل حديثاً طويلاً عن الحب ، فيقسمه إلى حب طهرى وحب شهوى ، ويعزو إلى الأول كل ما يصدر من خير والى الثانى كل ما يمسخ الحياة من شر ؛ ثم يقودهما ملك آخر الى الدار الخامسة حيث يطهر الطماعون وجامعو المال من خبثهم ، ويلقى بين هؤلاء البابا أدريان الخامس فيكلمه (٢٠ — ٢١) ويلقى دانتى الملك هوج كانت من ملوك فرنسا فيحدثه هذا عن أحفاده وذراريه من ملوك ذاك البلد . ثم نزل الجبل ويميد بمن عليه فتهتف الأرواح الهائمة على جنباته : « المجد لك يارب . . . العظمة لك يا الله ! » . ثم يتقدم الى الشاعرين روح قد تم تطهيره وأخذ طريقه الى الفردوس ، ويدعى ستاتيوس فيشرح لهما سبب الزلزلة السالفة ثم يتقدم الى ڤرجيل فيعرفه ويكاد يطير من الفرح للقائه (٢٢) ويخب الثلاثة فى طريقهم الى الدارة السادسة حيث يطهر المنهومون وأهل البطنة ، وحيث يرون شجرة[1] باسقة ذات طلع نضيد وفاكهة حلوة يفوح أرجها ، وفى أوراقها أرواح تذكر الله وتسبح بحمده ، وتشكر له ما رزقها من عفة (٢٣ — ٢٤ — ٢٥) وينظر دانتى فيرى روح صديقه فوريز الذى ينتقد بشدة هذا الملبس الجديد الشاذ الذى اتخذه أهل فلورنسا ، ثم يُرى دانتى جماعة من أصدقائه المتلبثين فى المطهر ومنهم خصمه السياسى الكبير كورسو دوناتى ، ويصل الثلاثة الى شجرة أخرى تخرج من بين أوراقها أصوات رائعة تردد أمثلة فى النهم ، ثم يتقدم اليهم ملك فيهديهم الى الدارة السابعة والأخيرة من المطهر حيث يطهر أولئك الذين كانوا لا يستطيعون كبح نفوسهم وضبط عواطفهم ساعة الغضب . وهم يطهرون ثمة فى نار حامية (٢٦ — ٢٧) وترى الأرواح الهائمة فى النار ظل دانتى على اللهب فتدهش لوجود حى من بنى الدار الفانية فى هذا المكان الأخروى المقدس ، ثم يتقدم إليه روح صديقه جيدو جوينيشيلى الشاعر الايطالى المعروف فيتحدث اليه برهة كما يتحدث اليه روح آخر . ثم يقودهم ملك كريم عَبْر النار إلى المعراج المؤدى إلى السماء .. جنة الأبرار .. ولكن الليل يقبل ، فيجلس الثلاثة (ڤرجيل ودانتى وستاتيوس) عند حنية رخية النسيم ، حيث ينام دانتى فيرى رؤيا جميلة . ثم يهب مع الصباح فيودعه ڤرجيل ، ويترك له الحرية الكاملة للتجول فى السماء حتى يلقى بياتريس (٢٨) ويذهب دانتى فى السماء صعداً حتى يبلغ الغابة الفردوسية الوارفة ، ولكن نهراً من أنهارها يحجز بينه وبين فتاة لاهية هيفاء وقفت فى روضة ناضرة تقطف الزهر ذا الشذى ؛ فيكلمها دانتى ، ولكن الفتاة تأخذ معه فى شرح جغرافية هذا المكان ، وتخبره أن هذا النهر الذى يفصل بينهما هو نهر ليث[2] ، وان يكن اسمه يونو فى مكان

(١) تشبه هذه الشجرة سدرة المنتهى التى سيأتى ذكرها فى الكلام عن المعراج فلفت نظر القارىء لذلك

(٢) من أنهار الميثولوجيا اليونانية ، فليتنبه القارىء

آخر (٢٩) وتخطر الفتاة ، فى عكس مجرى النهر ، ويمشى دانتى تلقاءها ، ويتحدثان حديثاً مشجياً ، ثم يسمعان موسيقى بعيدة فينظران ، فاذا حفل حاشد فى أديم الفردوس يلوح فى الأفق . (٣٠) وتمضى لحظة ، واذا ملاك كريم يتيه فى شفوف بيض يتنزل من السماء الى مسرى دانتى ، وينظر الشاعر ، فيرى حبيبته بياتريس هى هذا الملاك الطاهر فيكاد يجن من الفرح ... ولكن بياتريس تأخذ معه فى عتاب حلو وعذل رفيق (٣١) فيعترف الشاعر أنه مخطئ فى كل ما أخذت عليه حبيبته ، ويركع بين يديها معتذراً ثم يسجد سجدة طويلة باكية ، وتتقدم اليه ماتيلدا — الفتاة السابقة — فتأخذ بيده ، وتخوض به لجج ليث ، ثم تقدم اليه أربع عذارى فاتنات ، يمثلن الفضائل الكنسية ، وهؤلاء يقدنه الى جريفون ، رمز المخلص ، السيد المسيح ، والى ثلاث عذارى أخريات يمثلن الفضائل الأنجيلية ، وهؤلاء يقدمنه الى بياتريس التى تنسى دانتى جمالها الخلق ، وتشغفه بجمالها الروحى (٣٢ — ٣٣) وينطلق الجميع (دانتى وماتيلدا وستاتيوس وبياتريس) ويحذرون دانتى ألا يحدق النظر فى حبيبته لئلا يمشى بصره من شدة لألائها . ثم يصلون الى دوحة عظيمة هى شجرة المعرفة التى أكل منها آدم وطرد بسببها من الجنة ، فيرى الى أطيار وأشباح غريبة تهبط من علٍ فتكون فيها ، ويتبين منها دانتى بازيا ونسراً وثعلباً وتنينا . . . . وتتقدم بياتريس الى الشجرة هى والعذارى السبع فينشدنه أنشودة من أناشيد الجنة ، ثم يمضى الجميع وتكلم بياتريس دانتى ، فتكشف له عن شؤون غيبية ستحدث له فى الدار الفانية حينما يعود اليها . ويكونون عند النبع الأكبر الذى يفترق عنده النهران ليث ويوتو ؛ وهنا تشير بياتريس الى ماتيلدا فتتقدم هذه الى دانتى وتسقيه جرعة من مياه يوتو ، التى تكون هى وأمواه ليث عظمة الالآه وحكمته وجبروته

(للبحث بقية)

د . خ

مجموعات الرسالة

ثمن مجموعة السنة الأولى مجلدة ٥٠ قرشاً مصرياً عدا أجرة البريد
ثمن مجموعة السنة الثانية (فى مجلدين) ٧٠ قرشاً عدا اجرة البريد
ثمن مجموعة السنة الثالثة (فى مجلدين) ٧٠ قرشاً عدا أجرة البريد
وأجرة البريد عن كل مجلد فى الخارج ١٥ قرشاً

أدب الرحلات

أبو بكر بن العربى

للأستاذ عبد الرحمن البرقوقى

نترجم اليوم لامام عظيم من أئمة المسلمين ، وعلم من أعلام هذا الدين ، الذين أنجبتهم الأندلس فيمن أنجبت ، فأثروا فى العلوم الاسلامية تأثيراً ، ونظروا فيها تنظيراً ، وفصّلوا ما أجمل منها تفصيلاً ، وسجلوا من ثم أسماءهم فى سجل الخلود تسجيلاً ..

هذا الامام هو العالم الحافظ الأصولى المحدث الفقيه الأديب الثبت الثقة أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أحمد المعافرى الاشبيلى الأندلسى المعروف بالقاضى أبى بكر بن العربى ..

نجّلَ هذا الامام[1] أبوان كريمان فاضلان مُعْرَقٌ لهما فى الفضل والكرم ، ومن ثم تدارکته أعراق صِدْق وكان منه هذا النابغة العظيم ، ولا جرم ، فان للوراثة أثرها ، وللبيئة أثرها البالغ كذلك ، هيأها قدر من الله نافذ ، وخط فى أم الكتاب مسطور ، وذلك أن أمّ الترجم له هى بنت أبى سعيد عبد الرحمن الهوزنى صاحب صلاة الجماعة بقرطبة فى عهدى عبد الرحمن الداخل وابنه هشام ، وهو رأى أبو سعيد والد أبى القاسم الحسن الهوزنى أحد العلماء الأعلام والسروات النابهين ، وهو — أى أبو القاسم — والد أبى حفص عمر ابن الحسن الهوزنى الكاتب البارع الألمعى . أما أبو الترجم له فهو أبو محمد عبد الله بن محمد أحد فقهاء أشبيلية ورؤسائها ، وكان له عند المعتمد بن عباد أعظم ملوك الطوائف وعند أبيه المعتضد من قبله منزلة باسقة . . ولما انقضت دولة المعتمد بن عباد وسائر ملوك الطوائف باستيلاء يوسف بن تاشفين ملك مراكش على الأندلس خرج أبو محمد ومعه ابنه الترجم إلى الحج ، وذلك سنة ٤٨٥ هـ — سنة ١٠٩٢ م — وسن الترجم له إذ ذاك زهاء سبعة عشر عاماً ، إذ كان مولدُهُ سنة ١٠٧٥ م ، وقد تأدب الترجم باشبيلية قبل ارتحاله مع أبيه وقرأ القراءات وسمع أباه وخاله أبا القاسم الحسن الهوزنى وأبا عبد الله السرقسطى وغيرهم ، وفى ذلك يقول من كتاب له : « حذقت القرآن ابن تسع

(١) نجّلَه ولَدَه